

الوسط البيئي والمحيط الطبيعي لمجال المغرب الأوسط

من خلال كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان.

¹د. أحمد بن خيرة. ²د. محمد حناي.

جامعة الشهيد حمّـه لخضر – الوادي. الجزائر.

benkheiraahmed1@gmail.com

.mohammed-hannai@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2024/10/24 تاريخ القبول: 2024/11/28 تاريخ النشر: 2025/03/10

© 2025 by the author. Published by the journal of the Faculty of Sciences, University of Algiers. All rights reserved.

الملخص:

يزخر المغرب الأوسط (الجزائر) كمجال حضاري وإنساني بمعالم طبيعية هامة زاد في قيمتها الإنسان المغرب أوسطي الذي سخرها في الإضافات الحضارية لمجاليه حتى يتسنى له العيش بكرمة، وتزدان حياته بالمنعة والحرية؛ هذه المعالم الطبيعية ووسطها البيئي بالمغرب الأوسط استقطبت أنظار الرحالة، ومنهم: "الحسن الوزان" الذي رصدها رصداً دقيقاً ومفصلاً في كتابه "وصف إفريقيا"، حيث راح يُعَدُّ جبال "المغرب الأوسط" ويذكر مُمَيِّزاتها الواحد تلو الآخر، مع تحديده لمعالمها؛ ثمَّ عرَّج على الأنهار التي تملؤها سهول وهضاب بلاد "المغرب الأوسط" مُبَيِّناً أزمة جريانها من عدمه، وهل هي مستغلة أم لا.

كما قدَّ لنا وصفاً للثروة النباتية والحيوانية التي يزخر بها "المغرب الأوسط"، وكيف تستغلُّ من طرف الإنسان الذي يعيش في هذا المجال، معرِّجاً على وصف أنواع المناخ السائد في بعض المدن والقلاع.

الكلمات المفتاحية: الوسط البيئي - المحيط الطبيعي - المغرب الأوسط -
الحسن الوزان - وصف إفريقيا.

summary:

The Central Maghreb (Algeria), as a cultural and human domain, is full of important natural monuments whose value has been increased by the Central Maghreb man, who has harnessed them in the cultural additions to his domain so that he can live in dignity, and his life may be adorned with strength and freedom. These natural landmarks and their environmental environment in the Central Maghreb attracted the attention of travelers, including: Al-Hassan Al-Wazzan, who monitored them accurately and in detail in his book "Description of Africa," where he enumerated the mountains of the "Central Maghreb" and mentioned their characteristics one after the other, while specifying their features. Then he looked at the rivers that fill the plains and plateaus of the "Central Maghreb" countries, explaining the crisis of their flow or not, and whether they are exploited or not. He also gave us a description of the flora and fauna that the "Central Morocco" abounds with, and how it is exploited by the people who live in this area, going on to describe the types of climate prevailing in some cities and castles.

Keywords:

The environmental environment - the natural environment - the Central Maghreb - Al-Hassan Al-Wazzan - Description of Africa.

مُقَدِّمَة

سَلَّطَ العديد من الرِّحَالَة والجغرافِيُّون الضُّوء على "المغرب الأوسط" في
مختلف الجوانب الجغرافيَّة والحضاريَّة والثَّقافيَّة والسِّيَاسيَّة وغيرها، مما

مَكَّن القارئ لتاريخ "المغرب الأوسط" الحصول على صورة تتناول مشاهد مُتعدِّدة عنه.

فالإنسان بطبعه يعتمد في حياته وفي تقدُّمه اعتماداً كبيراً على البيئة التي يعيش فيها، التي تُعدُّ الوسط الطَّبيعي أو المحيط الحيوي للفرد وباقي الكائنات الحيَّة، حيث ارتبطت الحياة منذ وجود الإنسان على الأرض بالبيئة التي وُجد فيها، كما ارتبط تطوُّره الحضاري باستغلاله لإمكاناتها وطاقاتها، ومن هذا المنطلق حاولنا الكشف عن الوسط البيئي والحيوي ومجال "المغرب الأوسط" من خلال الجغرافي "حسن بن مُحمَّد الوزَّان".

إشكاليَّة الدِّراسة: حتى نُبيِّن ما رصده لنا الحسن الوزَّان حول بيئة "المغرب الأوسط"، ارتأينا طرح الإشكاليَّة التَّالية: ما المظاهر البيئيَّة التي رصدها الحسن الوزَّان عند وصفه لبلاد المغرب الأوسط وما أثرها في توضيح معالم هذا المجال حضارياً؟

مُسْتَعِينِينَ بعدَّة أسئلة ثانويَّة هي:

- (1)- من هو "الحسن الوزَّان"؟
- (2)- ماهي مكنونات كتاب وصف إفريقيا؟
- (3)- ما المظاهر الطَّبيعيَّة التي حاز عليها مجال المغرب الأوسط؟
- (4)- ما الغطاء الحيواني والنبَّاتي الذي حازه مجال المغرب الأوسط؟
- (5)- ما الأثر الذي تركه هذه الوصوف في رسم مجال المغرب الأوسط؟

مناهج الدِّراسة: اتبعنا في هذه الدِّراسة ثلاثة مناهج هي:

- المنهج التَّاريخي: اعتمدناه لرصد الفترة الزَّمنيَّة التي عاش فيها "الحسن الوزَّان" من خلال ترجمة حياته، وفي خضمِّها رصد لنا مجال "المغرب الأوسط".
- المنهج الوصفي: اعتمدناه للقيام بعملية وصف شاملة للمكوَّونات الطَّبيعيَّة لمجال "المغرب الأوسط".

• المنهج الاستقرائي: اعتمدناه لرصد غنى المجال الطبيعي "للمغرب الأوسط" وانعكاسه على واقع الإنسان الذي يعيشه.

• المنهج المقارن: اعتمدناه في تقديم أراء رَحَّالة وجغرافيون آخرون رصدوا ما رصده "الوزَّان"، وتقاطعوا معه في العديد من الآراء التي تُعْضِدُ حقول رؤيته ومنظوره لما رصد ودوَّن.

أما التَّحليل فهو الصِّفَّة الملائمة في كامل الورقة البحثيَّة لاستنطاق المادة التَّاريخيَّة المُقدَّمة.

أولاً- التَّعريف بالمؤلِّف:

هو الحسن بن مُحَمَّد الوزَّان الفاسي، ولد بمدينة "غرناطة"، اختلف المؤرِّخون في تحديد سنة ولادته، فأرجعها البعض إلى عام (901هـ/1495م)، والبعض الآخر إلى عام (906هـ/1500م)، ومن خلال ما ورد في كتاب "وصف إفريقيا" من تواريخ نرجَّح أنَّ "الوزَّان" ولد حوالي عام (888هـ/1483م)، أي قبل سقوط "غرناطة".

اشتهر باسم "ليون الإفريقي، ويكْنَى بِـ"أبي علي"، ويدلُّ لقبه "الوزَّان على أنَّ أحد أجداده كان يعمل موظفاً في مصلحة الموازين العامة، وبعد سقوط "غرناطة" سنة (897هـ/1492م) بيد النِّصاري الكاثوليكين لجأت عائلته إلى "المغرب"، واستقرَّت بمدينة "فاس" (الدِّفاع، 1993).

ينتمي "الحسن بن مُحَمَّد الوزَّان الفاسي" إلى قبيلة "بني زِيَّات الرَّنَّائيَّة" الواقعة بين "سبته" و"تطوان" بِـ"المغرب الأقصى"، وعاشت أسرته حقباً من الرَّمْن في "الأندلس الإسلاميَّة"، وتعلَّم فيها النُّحو والأدب والشَّعر والتَّاريخ والفلسفة وأصول الدِّين، على يد كبار وأعلام "جامعة القرويين".

ويعد "حسن الوزَّان" آخر المؤلِّفين الكبار في الجغرافيا العربيَّة في بلاد المغرب، وقد أهَّلته مكانة أسرته المرموقة، التي كانت تعتبر نفسها من جماعة

الشُّرفاء أن يشتغل مدّة سنتين كاتباً موثقاً بمستشفى في "فاس"، وأثناء ذلك نمت فيه غريزة حبّ الاطلاع والشَّغف بتسجيل الحوادث) سعيدوني، 1999).

قام حسن الوزّان بعدت رحلات داخل "المغرب" وخارجها، فهو شخصية عربيّة مغربيّة إسلاميّة اعتمد الغربيُّون المسيحيُّون على كتابه كمصدر أساسي عن إفريقيا، طوال العصر الحديث؛ أمّا المسلمون فلم يعرفوا عنه شيء فأغفلوا عليهم "الوزّان"، وجاء في قوله: «أنا حسن بن مُحمّد الوزّان أنا "جان ليون ميدسيس" خُتِنْتُ على يد حجام، وعُمِدْتُ بيد البابا، يدعوني الآن الإفريقي، بيد أيّ لست من "إفريقيا" أو "أوروبا" أو "بلاد الغرب" ويطلقون عليا أيضاً: "الغرناطي" و"الفاسي" و"الزّيّاتي"، ولكني لم أصدر عن أيّ بلد أو مدينة أو قبيلة، أنا ابن السَّبيل، وطني قافلة، وحياتي لا يمكن ترقُّمها من أيّة مفازة وحياة غيري تُرتقب...». من خلال هذا القول للحسن الوزّان نستشفُّ أنَّ يعلن عن عدم انتمائه إلى أي بلاد أو فضاء، فشخصيّته مُتعدّدة، وهذا يُبرز تعدُّد الفضاءات، فالحسن في المغرب مغربي، وفي تونس يرتدي اللباس التُّونسي.

ثانياً- التّعريف بكتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزّان:

يعتبر كتاب "وصف إفريقيا" من تأليف الجغرافي "حسن الوزّان"، كتبه باللُّغة الايطاليّة وترجمه إلى اللُّغة العربيّة، ألفه سنة (933هـ/1526م) بعد ما قضى ثمانية أعوام من الإقامة في "إيطاليا"، في منتصف القرن السّادس عشر ميلادي؛ كان هناك اختلاف في نصّ تاريخ تأليف كتاب "وصف إفريقيا" إذ أشار المحقِّق "شيفر" صاحب الطّبعة الفرنسيّة في نصّه تاريخ تأليفه بالهجري والميلادي في عام (930هـ) الموافق لشهر جانفي (1524م)، أمّا بالطّبعة العربيّة التي حقّقها كلٌّ من "مُحمّد حيّي" و"مُحمّد الأخضرّي" احتوى النّص على التّاريخ الميلادي فقط.

في هذا الصّدّد يقول هو نفسه في خاتمة كتابه: «والحاصل أنّ ما شاهدته أنا "يوحنا ليون". مما هو جميل وجدير بالذِّكر في كلّ "إفريقيا" التي جُبّتها من جهة

أخرى، وقد اثبتت بعناية يوماً فيوماً كلّ ما رأيته يستحق الذكر كما شاهدته، وما لم أشاهده أخبرني به من يوثق به إخباراً صحيحاً كاملاً، ثم رتبت هذه المذكرات بقدر استطاعتي، وألفت منها كتاباً عندما كنت بـ"روما" في العام الميلادي (1526م) في العاشر من مارس، ويعدّ هذا الكتاب من أهم المصادر في التعريف بـ"إفريقيا"، كذلك يمثل القسم الثالث من كتاب "الجغرافيا العامة"، وقد اعتذر عمّا يمكن أن يقع في كتابه من أخطاء خاصة عند النقل، حيث مرّ عليه عندما ألفه 10 سنوات لم يطّلع أثناءها على أيّ كتاب من كتب التّاريخ لإفريقيا وجغرافيتها، وإنّما اعتمد على ما علق في ذهنه، وهذا ما يُفسّر خلو الكتاب من نقولٍ حرفيّة، عكس ما هو الشّأن عند غيره من الجغرافيون العرب. والتزم "الوزّان" الموضوعيّة والحياد التّام خلال توثيقه لكتابه تبعاً لما رآه، فكتابه هذا يعتبر من أئمن المصادر، لكنّه يحتوي على عددٍ ضخم من الأخطاء ناتجة على عدّة أسباب، أهمّها: "غيبة المصادر عنه وبعد عهده بالأماكن التي تحدّث عنها على افتراض أنّها لم تكن مسجّلة في مذكراته.

وعلى صعيد تحقيق كتاب "الحسن الوزّان"، نجد اعتماد المحقّق "جيوفاني باتيستا راموزيو" اسمه بـ (la descrittione de lafrica) "وصف إفريقيا"، ودعا مؤلفه باسمه "جيوفان ليون إفريكانو"، وضمّنه إهداء سيرة موجزة له، وهكذا عُرف في الطّبّعات المتعدّدة التّالية التي نُشرت في "البندقية" لهذا الكتاب، وكذا عُرف في التّرجمات الأوروبيّة التي سرعان ما ظهرت في التّرجمة الفرنسيّة سنة (1556م) واللاتينيّة في نفس السّنة، والتّرجمة الانجليزيّة سنة (1600م)، وصولاً إلى التّرجمة الألمانيّة (1805م) التي أوردت اسمه على النّحو التّالي: (joharin le oderafricaner)، وضمّن هذا الكتاب يشكّل تصوّرات الأوروبي عن "إفريقيا" نظراً لصدوره عن شخص عاش في تلك الأنحاء وجال بها.

فجاء كتاب "وصف إفريقيا" في عرض جمع كتب الرّحلات وكتب المسالك، وجمع بين الطّابع العربي التّقليدي والأسلوب الغربي المستحدث، وقد عرف هذا

الكتاب لدى الخاصة منذ سنة (1529م) واشتدَّ الإقبال عليه باعتباره كتاباً أساسياً في الجغرافية الوصفية.

وقد وُضِعَ لكتاب "وصف إفريقيا" ترجمتان إحداهما في السُّعوديّة قام بها "عبد الحميد حميدة" (1399هـ/1979م)، والثانية قام بها "مُحمَّد حجّي" و"مُحمَّد الأخضرى" بالمغرب الأقصى، في جزئين وفي طبعتين، الأولى سنة (1981م)، والثانية: سنة (1983م)، عن دار الغرب الإسلامي، بيروت، وهي الترجمة المعتمدة في دراستنا.

ثالثاً- وصف "حسن الوزان" للمظاهر الطَّبِيعِيَّة في المغرب الأوسط:

1- الجبال:

يَتَمَيَّزُ "المغرب الأوسط" عن باقي البلدان بتنوّع تضاريسه، وبالفوارق التي تطبع انتظامها، فالجبل الشَّاهِق يحادي السَّهْل المنخفض، كما تشرف الهضاب على السُّهول وتتخلَّل السُّهول والأحواض المناطق العالية، فتعتبر الجبال من أهمِّ المجالات غناً وتنوعاً من حيث الموارد الطَّبِيعِيَّة، حيث ذكر "الوزان" تعداد الجبال بِـ "المغرب الأوسط"، وهي:

1 - 1 - جبل بني يزناسن:

وضح "حسن الوزان" حدوده، فبحسب حديثه أنَّه يلاصقه من جهة "قفر كرت"، و"قفر أنكاد" من جهة أخرى، وحدَّد موقعه نحو 50 ميلا غربي مدينة "تلمسان"، ويمتد على طول 25 ميلا، وعلى عرض نحو 15 ميلاً، ويتميّز بالارتفاع وصعب المسالك.

- تكسوه غابات كثيرة (تنتج كمّية وافرة من الخروب).
- يضمُّ مداشر عديدة، يسكنها قوم ذوو بأس شديد.
- في أعلاه قلعة خصبة يسكنها أمراء البلاد.

وتحدّث "الوزّان" عن علاقته مع هؤلاء الأمراء فكانت علاقة طبعيّة، وأظهروا له عناية كبيرة) الوزّان، 1983).

1 - 2 - جبل مظفّرة:

والذي قال عنه: «يعرف بشدة البرودة وشهاقته، كثير السكّان، يقع على بعد نحو ستّة أميال من "ندرومة"، وسكّانه أشداء لكنّهم فقراء، ينبت فيه الشّعير». ذكره "مارل كارل بخال": «أنّه جبل طقسه بارد، عالٍ شديد الانحدار، على فرسخين ونص من "ندرومة" الجنوب، سكّانه من بربر "زناتة"، ناسٌ شجعان أشداء في الحروب فقراء لأنّ جبالهم لا تنبت سوى الشّعير والخروب، ألا أنّهم يكسبون قطعاً كثيرة من الماشية وغابات من أشجار الخروب، يصنعون منها الفحم يبيعونه للمدن ولمناطق أخرى».

1 - 3 - جبل ونهاصة:

كشف عن القبيلة التي تسكنه ووصفها بالعاتية، لكنّها ريفيّة وذكر مدينة "هنين" المجاورة له، وقال بأنّه: «ينبت فيه قليل من القمح وكثير من الخروب».

1 - 4 - جبل اغبال:

تطرّق فيه لذكر من يقطنه ووصفهم بأناس أنذال يخضعون لحكومة مدينة "وهران" وكلّهم فلاّحون وحطّابون، تغيّر حال عيشهم عندما احتلّهم النّصارى وأصيبوا بفقر مدقع، على عكس ما كانوا عليه أيّام كانت المدينة بأيادي المسلمين، فقد لحقهم أذى كبير من هؤلاء المحتلّين.

يتفق وصف "مارول كارل بخال" مع "حسن الوزّان" حول هذا الجبل، حيث قال في كتابه: «يسكنه بربر انذال غلاظ يأتون بالحطب إلى المدينة... من أهل البلد»؛ وكما قال: «أنّ في هذا الجبل محلّات معمورة قرب "وهران" واحدة منها عين جارية وبساتين بها أشجار اللّيمون الحلو والحامض والبرتقال، ويطيب بها القمح بكثرة».

1 - 5 - جبل بني ورنيد:

يبعد نحو ثلاثة أميال من "تلمسان"، يتميز بكثرة السُّكَّانِ واغلبهم فلاحون وحقَّابون، ويُنتج كمِّيَّة وافرة من الفواكه (التَّين والكرز). ويقول "كارول بخال": «أنَّه جبل مُمتدُّ إلى قرابة "تلمسان" بفرسخ واحد، وطقسه بارد به غابات من الأجنَّة ذات الأشجار التي تعطي ثمار كثمار أوروبا، وبه أشجار يُصنع منها الفحم، وتربته يطيب فيها القمح والشَّعير».

1 - 6 - جبل مغراوة:

يمتدُّ على طول نحو أربعين ميلاً محاذياً شاطئ البحر المتوسط بإفريقيا، من مدينة "مستغانم"، يتميز بسكَّان نبلاء وكرماء و أشدَّاء، يملكون أراضي جيِّدة. قال عنه "مارول كارل بخال": «أنَّه جبل مُمتدُّ على طول أربعة عشر فرسخاً على السَّاحل، به مدينتان مبنيتان على سفح هما: "مزگران" و "مستغانم". وقال: أنَّ معظمهم أغنياء بزروعهم وقطعان ماشيتهم، ولكنَّهم يُنتجون مثلماً يفعل العرب، ولا يستقرُّون في محلَّة معلومة».

1 - 7 - جبل بني وسعيد:

ذكر بأنَّه يجاور مدينة "تنس" يسكنه سكَّان كثيرون، فظاظ غلاظ القلوب، يملكون كمِّيَّة وافرة من العسل والشَّعير والماعز، يبيعون إلى التُّجَّار الأوروبيين الشَّمع والجلود من خلال شاطئ "تنس".

1 - 8 - جبل ونشريس:

مَيَّزَه "حسن الوزَّان" بشهاقته، ووصف سكَّانه بقبائل نبلاء، كما وضَّح أن تربته جيِّدة وبه عُيون كثيرة، ومَيَّزَه بوفرة كبيرة من معدن التُّوتيا (الزَّنك) في قِمَّتِه.

1 - 9 - جبل الجزائر:

عددٌ لا يحصى من الجبال في شرق سهل الجزائر وجنوبه، تسكنها قبائل شديدة البأس مُتحرّرة من كل إتّاوة، وافرة الغى واسعة الكرم، يملكون أراضي جيّدة للزراعة، وكميّة عظيمة من الماشية والخيّل. كما تطرّق إلى ذكر جبال "بجاية" بحيث يقول: جبالها كلّها شاهقة واعرة ذات غابات وعيون كثيرة، وسكّان هذه الجبال كرماء نبلاء أغنياء (ماعز، البقر، والخيّل) ينتج كمّيّات كثيرة من الجوز والتّين، موجودة في جبال "زواوة"، كما تزخر هذه الجبال بمعادن حديد.

فالملاحظ أنّ "حسن الوزّان" قدم تعداداً واضحاً ودقيق حول جبال "المغرب الأوسط"، وأشار إلى صفة الكثر لسكّان هذه الجبال، خاصة الجبال الواقعة بشرق سهل "الجزائر" وجنوبها.

(2)- الأنهار:

الأنهار عبارة عن مجاري مائيّة، وهو عبارة عن أرض منخفضة تحيط بها أراضي مرتفعة من الجانبين، ويتّصف بالعمق ويصبّ أمّا في المحيط أو في البحر أو يلتحم بنهر آخر، ومن هنا نلاحظ أنّ جغرافية "المغرب الأوسط" فيها تنوع تضاريسي جعله يتوفّر على عدّة أنهار (جورج، 2000). هذه الأنهار أمّدتنا بها "حسن الوزّان" من خلال كتابه "وصف إفريقيا" وزوّدنا حولها بمعلومات ثريّة، فتطرّق إلى:

2 - 1 - نهر ملوية:

أشار "الوزّان" بأنّه نهر كبير، يمرّ بالسّهول الوعرة اليابسة ليصل إلى سهل أكثر وعورة، ويبدأ بين "أنكاط" و"كرط"، ويمرّ في سفح جبل "بني يزناسن" ويدخل في البحر المتوسط؛ وما يميّز هذا النّهر حسب قول "الوزّان" يقطع في الصّيف خوضاً على طول مجراه كلّ.

ويقوم هذا النّهر على ثلاثة قبائل، هي: "أولاد طلحة" و"أولاد حرّاش" و"أولاد منصور"؛ وبالرّغم من أنّه أحد أكبر أنهار "المغرب الأوسط" التي قامت على

ضفاف عدّة مزارع وبساتين، إلّا أنّ نتاجها من القمح والشّعير ضعيف جداً (مجهول، 1985).

ومن الأنهار التي كان يعتمد عليها سكّان "المغرب الأوسط"، "نهر أرشكول" المسعّى الآن "نهر تفنين".

2 - 2 - نهر التّافنة:

وضّح "الوزّان" مكان نبعه فقال: «بأنّه ينبع من جبال موجودة في حدود نوميديا، يسيل نحو الشّمال يعبر قفر "أنكاد" إلى أن يصبّ في "البحر المتوسط"، وقدّر بُعده من "تلمسان" بنحو 15 ميلاً. يعرف بوجود السمك الصّغير الذي لا قيمة له.

وحدّد "مارمول كار بخال" مساره، حيث ينحدر من "جبال الأطلس"، ويصبّ في نهر "أرشكول"، الذي تقع على ضفافه أراضي صالحة لزراعة القمح. ووصفه صاحب "الاستبصار" بأنّه نهر كبير تدخل فيه السّفن.

2 - 3 - نهر الشّلف:

يُقرُّ "حسن الوزّان" بأنّه نهر كبير نابع من "جبال ونشريس" وينحدر عبر تخوم مملكتي "تلمسان" و"تنس" ليصب في "البحر المتوسط"، يفصل بين قرية "مزغران" و"مدينة مستغانم"، وبه كمّيّة وافرة من السمك الجيّد (الكبير والصّغير).

ويقول صاحب "الاستبصار" أنّ: «هذا النّهر تقوم عليه مدينة قديمة أزليّة فيها آثار قديمة تسمّى "شلف"».

أمّا "البكري" (ت. 487هـ) فيقول: أنّ نهر الشّلف يمرُّ على عدّة مدن نذكر منها: "بني وارفين". حيث يقول: «وبني وارفين على نهر الشلف» (ص. 725).

(1992)، أمّا مدينة "مستغانم" فهي موجودة بالقرب من نهر شلف، كما نجد أيضا مدينة "مزهران" المشهورة بالمزارع.

أمّا "ابن خلدون" فيقول: أنّ هذا النّهر يمرُّ بسكّان "بني واطيل"، حيث تجتمع فيه سائر أودية "المغرب الأوسط" مثل: "واد مينا"، وغيره من الأودية، ثمَّ يصبُّ في البحر الرُّومي.

2 - 4 - نهر الشّفة:

يضيف "حسن الوزّان" حول هذا النّهر بأنّه نهر قصير ، نابع من الأطلس يصبُّ في "البحر الأبيض المتوسّط" بالقرب من مدينة "تمندفوست".

2 - 5 - نهر الواد الكبير:

ينبع من جبال "إقليم الرّاب"، وينحدر بين الجبال إلى أن يصبَّ في "البحر الأبيض المتوسّط"، ولا يفيضُ إلّا في أيّام الشّتاء أثناء ذوبان الثّلج، ولا يمارس فيه الصّيّادون الصّيّد، وذلك لقربهم إلى البحر في "بجاية"، وقد قدّر "حسن الوزّان" بعده عن "بجاية" بنحو 3 أميال.

2 - 6 - نهر السُّمار:

هذا النّهر يفصل إقليم مدينة "القالّة" عن إقليم قصر "جيجل"، وينبع حسب ما صرح به "الوزّان" في كتابه من جبال مُتاخمة لجبل الأوراس، ليخرج في إقليم "قسنطينة" ليدخل تحت الأرض ويرتبط بنهر آخر إلى أن يصبَّ في "البحر الأبيض المتوسّط".

2 - 7 - نهر بدوغ:

ليس بنهر كبير، ينبع من الجبال المجاورة لمدينة "قسنطينة" ويصبُّ في البحر الأبيض المتوسّط.

2 - 8 - نهر واد مجردة:

تحدث "حسن الوزان" على كبره وبأنه ينبع من الجبال الشَّامخة لإقليم
"الزَّاب" متَّجهاً للشمال،

ويصبُّ في "البحر الأبيض المتوسط" في المكان المسَمَّى بـ"غار الملح"

والملاحظ من خلال ما ورد عن "حسن الوزان" في كتابه هذا، الذي هو بين
أيدينا؛ أنَّ كل مجاري هذه الأنهار تصبُّ في مكان واحد وهو "البحر الأبيض
المتوسِّط".

(3)- المناخ :

3 - 1 - مناخ تلمسان:

تَمَيَّزت مدينة "تلمسان" بمناخها الذي زادها جمالاً وخضرة. قال عنه
"العبدري": «وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخير، وأنظارها متسعة»
(العبدري، 2005)؛ و قال عنها "عبد الله ابن الصَّبَّاح في رحلته: «تلمسان طيبة
الماء و الهواء قابلة على كل غريب بالوسع».

قال "الحسن الوزان": «ويكون معظم مملكة تلمسان أقاليم جافة قاحلة، لا
سيما في جزئها الجنوبي، لكن السُّهول القريبة من السَّاحل مُنتجة جداً نظراً
لخصبها والجهة المجاورة لتلمسان كُلُّها سهل مع بعض المفايزات».

جمعت "تلمسان" بين الطَّابع السَّهلي والجبلي الذي أعطاهما منظرًا جميلاً،
عَبَّر عنه الرَّحَّالة "العبدري" في رحلته بقوله: «و تلمسان مدينة كبيرة، سهليَّة
جبليَّة، جميلة المنظر». و حتَّى سفوح الجبال كانت تُستغلَّ هي الأخرى في إنتاج
الحبوب، غير أنَّها تتميَّز بقلَّة الإنتاج.

و عن سهول "نهر الصَّفصيف" يقول "ابن الحاج النُّميري في رحلته عندما
استولى السُّلطان المريني "أبي عنان" على "تلمسان": «وأنحدر إلى جَنَّات
الصَّفصيف التي هي بهجة القلوب و نزهة العيون» (النُّميري، 1990).

3 - 2 - مناخ إقليم بني راشد:

ذكر "مارمول كارل بخال" في كتابه أنَّ "إقليم بني راشد" هو إقليم أو إمارة خاصّة، حدّد طول مسافته بـ 17 فرسخاً وعرضاً قدره تسعة (9) فراسخ، وطرفها الجنوبي سهل، وشمالاً تلال، يصلح بها الزّرع وتجوّد المراعي، سكّانه بربر من قبيلة "مقاطع" من سلالة "بني راشد"، يسكنون القرى، ويشغلون بزراعة الحقول والكروم، وغيرهم يَجوبون الأفاق كما يفعل الأعراب، وبه ثلاث مدن رئيسية، وهي: "بنو راشد" سميت باسمها الإمارة، وتُسمّى عند "بطليموس" "فيلبورك"، أمّا المدينة الثّانية فهي "القلعة" بنيت في سفح تل بين جبلين عاليين، تحيط بها أسوار ذات أبراج على هيئة القلاع الحصينة، يسكنها تجّار وصنّاع، أما المدينة الثّالثة فتدعى "معسكر". فيقول "حسن الوزّان": بها يقيم خليفة الملك مع فرسانه، ويعقد سوق كلّ خميس فيه عدد وافر من الماشية والحبوب والزّيت والعسل وكثير من منسوجات البلاد وأشياء أخرى، كالحبال والسُّروج والأعنة وحاجيات الخيل؛ وسكّان السُّهول هم أشرف بكثّر، يُقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم، ولهم عدد وافر من الجمال والخيّل.

وما يمكن ملاحظته في هذا الإقليم أنّهم نسبة إلى قبيلة "بني راشد" وحمل اسمها.

رابعاً- الغطاء النّباتي والحيواني بالمغرب الأوسط:

1- الثّروة النّباتيّة :

تُعتبر الثّروة النّباتيّة العنصر الأساسي لتأمين الغذاء سواء كان ذلك للإنسان أو الحيوان، لذلك اهتمّ الرّحالة خلال تنقّلاتهم بين حواضر "المغرب الإسلامي" عامة و"المغرب الأوسط" خاصّة، بوصف خيرات الطّبيعيّة، فقد اشتهرت بلاد "المغرب الأوسط" بتنوّع غطاءها النّباتي ووفرة محاصيلها الرّاعيّة، وهذا بسبب خصوبة التّربة ووفر المياه، لكنّها تباينت هذه الثّروة من مكان لآخر،

إذ نجد أنَّ مزارعها وبساتينها حسب ما جاء في المصادر الجغرافية تتوزَّع وتحتوي على ما يلي:

1 - 1 - القمح والشَّعير:

كان القمح والشَّعير من أكثر الزَّراعات المنتشرة بإقليم "المغرب الأوسط" نظراً لأهمَّيتها وقيمتها الغذائية، كما أنَّها تتطلَّب السَّقي ممَّا يُسهِّل زرعها في كلِّ مكان، إضافة إلى ذلك فهي تُقاوم التَّعفن والتَّلَف عند ادِّخارها.

فحسب ما ذكر الإدريسي عند تعرُّضه لمدينة "قسنطينة" فقال: «أنَّ الحنطة تقيم بها في مظاهرها مائة سنة لا تفسد». كما ذكر "حسن الوزَّان" سهل "متيجة" به ينبت القمح الجيِّد.

1 - 2 - البقول الجافة :

تحتوي البقول على قيمة غذائيَّة، ومن البقول المنتشرة ببلاد "المغرب الأوسط" بحسب "ابن فضل الله العمري": «عديدة ومتنوعة، كالثُّوم والبصل والكزبرة الخضراء واللوبياء واللفت، وتوجد بمدينة "نقاوس" الجزر.

1 - 3 - الفواكه:

لقد اشتهر "المغرب الأوسط" ببساتينه التي زخرت بمختلف الثِّمار والفواكه، حيث أشار "إبن حوقل" في كتابه قائلاً: «...ولهم من جيِّد الفواكه والتُّمور والأرطاب وسائر الأغذية، وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكَّان صحاريهم». وكذلك مدينة "تبسة" قيل عنها: «كثيرة الثِّمار والأشجار»؛ ويذكر مؤلِّف "الاستبصار في عجائب الأمصار": «أنَّ مدينة القلِّ كثيرة الفواكه والخيرات والعنب فيها كثير»، أمَّا حصن "سطيف" فقد اشتهر بكثرة مياهه

وأشجاره المثمرة، كما «إِنَّ غَلَّاتِهَا ومزارعها كثيرة وفواكهها جمّة». ومن الفواكه التي اشتهر بها المغرب الأوسط، التَّالي:

1 - 3 - 1 - الزَّيتون:

تعتبر شجرة الزَّيتون من بين الأشجار المثمرة التي اشتهرت بها الأرياف بـ"المغرب الأوسط" خاصة وهي شجرة مباركة ذكرت في القرآن الكريم.

ويقول "ابن الصَّبَّاح" في رحلته إلى "تلمسان": «أَنَّها مدينة خضراء من كثرة البساتين والأشجار والغالب عليها ثمار الزَّيتون».

1 - 3 - 2 - الكروم:

فقد عمَّت بانتشارها على أرجاء واسعة من إقليم "المغرب الأوسط"، وذلك من خلال الإشارات التي وردت في المصادر الجغرافيّة، فقد شملت مدينة "طولقة" على كلّ من الزَّيتون والاعناب والشَّجر وجميع الثِّمار، وتوفّرت في كلّ من "هنين" و"شرشال"، فقد ذكر "حسن الوزَّان بأنَّ في "تلمسان": «الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعناباً من كلّ لون، طيبة المذاق جداً، وأنواع الكرز الكثيرة التي لم أرى لها مثيل في جهة أخرى».

1 - 3 - 3 - التُّمور:

كان اقتصارها على المناطق الجنوبيّة، وكان بها الكثير من الأنواع، وقد ذكرت المصادر الجغرافيّة جودتها ونوعيتها، فما ذكره الجغرافي "البكري" عن مدينة "بسكرة": «... وهي مدينة كثيرة النَّخل والزَّيتون وأصناف الثِّمار»، وكانت "بسكرة" تعرف بـ"بسكرة النَّخيل".

وقد كان "حسن الوزَّان" شاهدا على وفرة الثَّمَر الذي ينقل إلى "قسنطينة"، حيث يباع فيها بثمان بخس.

1 - 3 - 4 - التَّين:

نظرا لوفرة هذه الفاكهة بإقليم "المغرب الأوسط" فقد كانت على رأس المنتوجات المصدرة إلى أقطار العالم الإسلامي، وهذا ما أكّده كتابات الرّحالة والجغرافيّون.

فذكر "الإدريسي" بـ"بجاية" بوادي ومزارع كثيران، والتّين وسائر الفواكه منها، الذي كان يكفي لكثير من البلاد، وبكثرة في "جيجل" الجوز والتّين، وتين "نقاوس" شهير بأنّه أجود تين، و"تلمسان" أيضاً كان بها من التّين ما تلدُّ به الأعين، وقد وصفه "الحسن الوزان": «بأنّه شديد الحلاوة، وأسود غليظ طويل جداً، يُجفّف ليؤكل في الشّتاء»، كما زخر "المغرب الأوسط" بنباتات بمثابة موارد أوّلية في الصّناعات كالقطن والكتان والنّيلة.

(2)- الثروة الحيوانية:

لقد زحرت مُصنّفات الرّحالة والجغرافيّون بالإشارات التي تُؤكّد وفرة الثروة الحيوانية وتوزيعها في إقليم "المغرب الأوسط".

ومنها ما ذكره "حسن الوزان" أنّ أحد النّسّاك جاء إلى مدينة "البطحاء" وكان سهلاً خالياً تماماً من السّكّان، وأمر هذا الرّجل بحرث الأراضى، فتكاثر بقره وخيله وغنمه إلى حدّ أنّه أصبح هو نفسه لا يدرك عدد رؤوس ماشيته، وكان له زهاء خمسمائة من الخيل ذكوراً وإناثاً، وعشرة الألف من الغنم وألفين من البقر.

ومن خلال هذا الكلام يُلاحظ وفرة الثروة الحيوانية بـ"المغرب الأوسط" وتنوعها.

وقد أشار "الإدريسي" إلى مدينة "وهران" وقال: «بها موجود البقر والغنم رخيص بالثّمن اليسير، كما حوا "المغرب الأوسط" شريط ساحلي طويل مزوّد بثروة سمكية هائلة، وقد اختصّت العديد من المراكز البحريّة بصيده، منها: "مدينة جيجل"، حيث أشار الجغرافيّون بوفرة حوتها وتنوّعه، وفي هذا الشّأن

يؤكد "حسن الوزان" أن سكان "دلس" جميعهم تعودوا على اصطياد السمك، وكانوا يحصلون على كميات وافرة لا تباع ولا تشتري وإنما يهدونه لم يرغب فيه. ومن بين الأنهار التي حوت الأسماك نهر "المسيلة" الذي يتميز بسمك صغير، ولم ير في بلاد الأرض المعمورة سمك على ضفته، وأهل "المسيلة" يفتخرون به، واشتهرت منطقة "المغرب الأوسط" بوفرة النحل وإنتاج العسل وهذا ما أكدوه الجغرافيون عن كثرة العسل، ومن بين هذه الإشارات رواية "شرشال" فيقول "الإدريسي": «لأهلها مواشي وأغنام كثيرة والنحل عندهم كثير والعسل بها ممكن».

و تتواجد الطيور بهذا الإقليم كالنعامة ذكر بأنها طائر طويل القامة وقال بأنها تؤكل كمية وافرة منها في أقاليم "نوميديا"، حيث تصطاد وهي صغيرة فتعلف وتسمن، حيث يقول: «بأنه أكل لحمها عندما كان في "نوميديا" ولم يجده رديئا جداً»، فذكر أيضاً أجناس القردة المختلفة وصنفهم نوعين "المدنية" اسمها "موني" بالإيطالية، ومنها الغير مدنية وتسمى "بابويني" كما توجد كمية وافرة من القردة في جبال "قسنطينة" فقد تعددت الثروة الحيوانية بها.

خامساً- خاتمة واستنتاجات:

من خلال ما تقدم توصلنا إلى النتائج التالية:

✓ أن "حسن الوزان" هو أحد الجغرافيين المسلمين الذين قدموا معلومات دقيقة حول واقع بلاد "المغرب الأوسط" مناخياً وطبيعياً ومقدراتياً.

✓ أن كتاب "وصف إفريقيا" رصد مدن وحواضر "المغرب الأوسط" من مناهي تركيبية ومعيشية مختلفة.

✓ أن كتاب "وصف إفريقيا" أبرز التنوع والثراء البيئي والثروات الذي كانت تزخر به حواضر "المغرب الأوسط".

✓ أن بلاد "المغرب الأوسط" كانت محلّ اهتمام الجغرافيين والرحالة المسلمين وغير المسلمين، وهذا راجع إلى ما كانت تزخر به وتتميّز به، وأولها ترامي مساحتها وتنوع تركيبها في كلّ المجالات.

وإضافة إلى ما قدّمه في الواقع البيئي الثري والمتنوع، رصد لنا "حسن الوزان" الواقع العمراني لحواضر ومدن "المغرب الأوسط"، ونقل لنا صورة تعكس فكر إنسان هذه البلاد الهندسي في تخطيط المدن وعمارها؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ أهل هذه البلاد يمتلكون عقول خلاقة ومبتكرة تحاول البحث عن العيش الكريم وبكرامة، في بيئة مُركّبة تؤدي إلى هدف واحد وهو رقيّ إنسان هذه الرقعة الجغرافية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر:

(1)- ابن الحاج التُّمَيْري: فيض العباب وإقامة قدامح الآداب في الحركة السَّعيدة إلى قسنطينة والزَّاب، تح: مُحَمَّد بن شقرون، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

(2)- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري وآخرون، ج.4، ط.1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2010م.

(3)- أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، تح: أدريان فان لوفن و أندري فيري، ج.2، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م.

(4)- أبو القاسم ابن حوقل: صورة الأرض، ط.1، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، 1992م.

- (5)- الحاج عبد الله الصَّبَّاح الأندلسي: «نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار (رحلة حجازية)»، تح: جمعة شيخة، مجلة دراسات أندلسية، عدد خاص. 45- 46، ديسمبر 2011، المطبعة المغاربية للطبع والنشر والإشهار، تونس، 2012م.
- (6)- حسن الوزَّان: وصف إفريقيا، تح: مُحَمَّد حِجِّي و مُحَمَّد الأخضر، ج. 2، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.
- (7)- عبد الرَّحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون. العبروديان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضب: خليل شحادة، مُر: سهيل زكَّار، ج. 6، ط. 1، دار الفكر، بيروت، 2000م.
- (8)- مارمول كار بخال: إفريقيا، تر: مُحَمَّد حِجِّي وآخرون، ج. 2، ط. 1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1984م.
- (9)- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، ط. 1، دار النشر المغربية، 1985م.
- (10)- محمد بن عبد المنعم الحميري: الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عبَّاس، ط. 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1974م.
- (11)- مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري: رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي ، ط. 2، دار سعد الدِّين للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، دمشق، 2005م.
- (12)- مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (الشَّريف الإدريسي): نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج. 1، ط. 1، مكتبة الثقافة الدِّينية، القاهرة، 2002م.

ثانياً- المراجع:

(13)- بيار جورج: معجم المصطلحات الجغرافية، تر: أحمد الطُّفيلي، مُر: هيثم اللّمع، ط.2، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، 2000م.

(14)- ديفيز ناتالي زيمون: «أسفار الألبان ، مسلم من القرن السّادس عشر بين عالمين»، أسطور للدراسات التّاريخيّة، مج.2021، ع.13، المركز العربي للبحوث ودراسة السّياسات، بالدّوحة، جانفي/2021م.

(15)- سلمى لعربي وخديجة طويطو: أدب الرّحلة بين الفضاء الجغرافي والتّاريخ والثّقافة (كتاب وصف إفريقيا لحسن الوزّان أنموذجاً)، مُدكّرة مُقدّمة لنيل شهادة الماجستير (غ.م)، قسم اللّغة والأدب العربي، كُليّة الآداب واللّغات، جامعة مُحمّد الصّديق بن يحيى - جيجل، الجزائر، 2020م.

(16)- طاهر خالد: «مساهمة الحسن بن مُحمّد الوزّان في تأريخ لبلاد السّودان من خلال كتاب "وصف إفريقيا" المجلة التّاريخيّة الجزائريّة، مج.1، ع.4، جامعة مُحمّد بوضياف - المسيلة، الجزائر، سبتمبر/2017م.

(17)- عبد القادر بوباية: «اسهام العلماء الأندلسيّين في الحركة العلميّة في تلمسان»، مجلّة عصور الجديدة، مج.1، ع.2، يصدرها مختبر البحث التّاريخي، جامعة وهران(1) أحمد بن بلّة، الجزائر، جويلية/2011م.

(18)- عبد الله الحاجي: «رحلة الحسن الوزّان المعروف ب " Jean Léon l'africain " إلى دول إفريقيا جنوب الصّحرَاء»، مجلّة العلوم الإنسانيّة والطّبيعيّة، مج.1، ع.6، مركز الأبرار للأبحاث والدراسات الإنسانيّة، الخرطوم ديسمبر/2020م.

(19)- عبد الله الدّفاع: رّواد علم الجغرافيا في الحضارة العربيّة والإسلاميّة، ط.2، مكتبة التّوبة، الرياض، 1993م.

(20)- مُحَمَّد بن عربة وأحمد بوسالم: «ثروات المغرب الأوسط النَّباتيَّة والحيوانيَّة خلال العصر الوسيط من خلال مُصنَّفات الرِّحلة والجغرافيا»، مجلَّة المعارف للبحوث والدراسات التَّاريخيَّة، مج.5، ع.3(ع.22)، كليَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر - الوادي، الجزائري، سبتمبر/2019م.

(21)- مختار حساني: تاريخ الدَّولة الرِّيانيَّة (الأحوال الاقتصاديَّة والثَّقافيَّة)، ج.2، ط.1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.

(22)- نصر الدِّين سعيدي: من التُّراث التَّاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999م.

الهوامش:

ابن الحاج التُّميري. (1990). فيض العباب وإقامة قدامح الآداب في الحركة السَّعيدة إلى قسنطينة والزَّراب، تح: محمد بن شقرون ، ط.1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، تح: أدريان فان لوفن و أندري فيري، ج.2، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص.725. (1992). بيروت.

بيار جورج. (2000). معجم المصطلحات الجغرافيَّة، تر: أحمد الطُّفيلي، مُر: هيثم اللُّمع، ط.2. بيروت: المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنَّشر والتَّوزيع.

حسن الوزَّان. (1983). وصف إفريقيَّا، تح: مُحَمَّد حَجِّي و مُحَمَّد الأخضر، ج.2، ط.2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

عبد الله الدِّفاع. (1993). رُواد علم الجغرافيا في الحضارة العربيَّة والإسلاميَّة، ط.2. الرياض: مكتبة التَّوبة، مكتبة التَّوبة.

مجهول. (1985). الاستبصار في عجائب الأمصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، ط.1. دار النَّشر المغربيَّة.

مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري. (2005). رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، ط.2. دمشق: دار سعد الدِّين للطباعة والنَّشر والتَّوزيع.

مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري: رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي ، ط.2، دار سعد الدِّين للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، دمشق، 2005م، (2005). 2.

نصر الدّين سعيدوني. (1999). من التّراث التّاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، ط.1. بيروت:
دار الغرب الإسلامي.